الميتة ...

لجي دي موباسان

بقلم الأديب كمال رستم

أحببتها حباً عنيفاً ! لِمَ يحب الإنسان ؟ أليس عجيباً ألا نرى في العالم إلا إنساناً ! ألا تقوم في النفس إلا فكرة ! ولا في القلب إلا رغبة ! ولا في الفم إلا اسم ! اسم يرق دواماً ! ... يرق كماء نبع مجاج من أعماق نفس ولهى ! يرق إلى الشفاه ! نذكره ! ونذكره ! نتمتم به دائماً ، وفي كل مكان كأنه صلاة !

سوف لا أقص قصتنا ؛ فليس للحب إلا قصة واحدة ! قابلتها وأحببتها ! هـذا كل ما في الأمر ! وعشت عاماً تغمرني رقتها ، وتحتويني بين ذراعيها ، وتمسني بطرفها ، وترعاني بلحظها ؛ وتلفني بأردتها ، وتهمس إلىّ بكلماتها ! . . . عاطلاً مطوقاً ، حبيساً في كل ما يصدر عنها بهذه الطريقة الفاضلة التي لم أحاول أبداً أن أعرف غيرها ، ليلاً كان أو نهاراً ، حياً كنت أو ميتاً ، على هذه الأرض العجوز أو في مكان آخر

ماتت زوجتي إذن ! كيف ؟ ... لا أدري !

عادت ذات مساء مطير ، يبلل المطر ثيابها ، وفي اليوم التالي سعلت ، واستمرت تسعل حوالي أسبوع لزمت بعده سريرها !

كيف حدث ذلك ؟ ... لا أدري !

عادها أطباء ... وصفوا الدواء ... ومضوا ! ...

واستحضرت أدوية ... وامرأة تجرعها إياها ! ...

كانت يداها دافئتين ، وجبهتها متقدة منداة ، ولحظها وامضاً حزيناً . حدثتها وأجابتني ! ما الذي قلناه ؟ لا أدري !

نسيت كل ما قيل ! كله ... كله ! ... ماتت إذن ! وإني لأذكر جيداً آهتها الخافتة . آهتها الأخيرة ! ... وتأوهت الممرضة قائلة : « آه » ! فأدركت ... أدركت ! ...

لا شيء ؛ عرفت أكثر من ذلك ! أبصرت قساً انفرجت شفتاه عن كلمة « خليلتك » ! خيل إلىّ أنه سبها ؛ فليس لنا الحق منذ ماتت أن ندعوها كذلك ، ولذلك طردته ! وحضر آخر وكان طيب القلب للغاية ، لطيفاً للغاية حتى لقد استعبرت عند ما حدثني عنها ! ولقد أخذ برأيي في ألف شيء بخصوص الجنازة ، لا أذكر الآن منها شيئاً مطلقاً وإن كنت أذكر جيداً صورة ناووسها ؛ وصوت المطرقة حينما أغلقوه عليها ! ... أواه يا إلهي ! ... وووريت ... ! ووريت ! هي ! في هذه الحفرة ! وحضر بعض الناس ! بعض الأصدقاء ؛ فررت منهم ! همت على وجهي طويلاً في الطرقات ! ثم عدت أدراجي إلى منزلي ؛ وفي اليوم التالي قمت بسفرة طويلة ! ...

* * *

رجعت أمس إلى باريس ! ...

وعند ما رأيت ثانية غرفة نومي ؛ غرفة نومنا ! مهادنا ، أثاثنا ، كل ما في هذا المنزل ... كل ما بقي من حياة شخص بعد موته . . . أصبت برجة حزن محض ! فقمت إلى النافذة وأطللت منها على الطريق ! ...

ولما لم أستطع أن أصبر على الإقامة بين هذه الأشياء ، بين هذه الجدران ، تناولت قبعتي وخرجت أبغي فكاكا ! وفي طريقي إلى الباب مررت بمرآة البهو الكبيرة التي وضعتها هناك ، لترى فيها نفسها من رأسها إلى أخمص قدميها كل يوم عند خروجها لتتأكد من أن زينتها كاملة ، وأنها تبدو جميلة آسرة من حذائها إلى قبعتها ! ...

وقفت أحدق في هذه المرآة التي طالما عكست صورتها ، طالما ! طالما ! . حتى خيل إلىّ أنها تتراءى فيها ! . . .

كنت ثم واقفاً ، مرتجفاً ، وعيناي مثبتتان على زجاج المرآة ؛ على الزجاج المسطح ؛ الضيق ! الرحيب ! ... الزجاج الذي يحتويها . ! يحتويها بأكملها ؛ يتمتع بمشاهدتها أكثر مني ؛ أكثر من نظرتي الولهى ! ... خيل إلىّ أني أحببت هذه المرآة ! لمستها ؛ ألفيتها باردة أواه ! يا لها من ذكرى ! يا لها من ذكرى ! مرآة مؤلمة ! مرآة متقدة ! مرآة حية ! مرآة مروعة ! ...

سعداء هؤلاء الذين يحكى قلبهم مرآة ؛ يدعون صور المرئيات تنزلق عليها ، ويزيلونها متى شاءوا ، فينسى كل قلب ما احتواه ! ... كل ما مر أمامه ! كل ما شاهده ! كل ما سدد إلى عواطفه ! . إلى حبه ! ... كم أتألم ! ...

وخرجت ، وعلى غير وعى ! على غير إدراك ؛ دلفت إلى المقابر . وثم رأيت رسماً بسيطاً جداً ... رأيت صليباً من الرخام نقشت عليه هذه الكلمات ! ...

« أحبتنى وأحببتها ثم ماتت » !

كانت هناك ! فى أسفل ! عظاماً نخرة ! يا للهول !

لبثت هناك طويلاً ، طويلاً . . . ولما أقبل الليل قامت فى نفسى رغبة غريبة ، رغبة مجنونة ، رغبة نفس قانطة ! تشوفت إلى قضاء الليلة قريباً منها . . . ليلة أخيرة أذرف دمى على قبرها !

ولكنهم سيبصرون بى وسيطردوننى ؛ فما العمل ؟ . . . نهضت ، وأخذت أضرب فى مدينة الموتى هذه . . . مضيت ! مضيت ! كم هى صغيرة هذه المدينة إلى جانب أختها ؛ تلك التى نراها ، ومع ذلك فالأموات أكثر عدداً من الأحياء

وإنه لمن المفارقات حقاً أن تكون كل هذه الدور الفخيمة ، والميادين الفسيحة ؛ كل هذه المساحة الشاسعة للأحياء القليلين ، يرقبون النهار ليتنفس ، ويكرعون ماء الينابيع وسلاف الكروم ، وينعمون بخيرات السهول ، بينما لا يكون لكل أجيال الموتى شيء . . . حقل . . . تقريباً لا شيء . تسترده الأرض . تجعلهم نسياً منسياً ... تبتلعهم ... ثم الوداع ! . . .

وفى نهاية القبور المأهولة ، أبصرت فجأة القبور المهجورة ، حيث بليت جسوم الموتى على طول الزمن وتم اختلاطها بالثرى ! حيث الصلبان نفسها قد تداعت ... وحيث يرقد فى الغد هؤلاء الذين قدر لهم أن يفنوا ... مكان ملىء بالورود المبعثرة ، وأشجار السرو السوداء الصامتات . . . حديقة حزينة شاسعة تعيش على جثث البشر . . .

وكنت هناك وحدى فتسلقت شجرة خضراء وتواريت بين أفنانها الملتفة الظليلة كغريق يتشبث بما يصادفه . . .

* * *

ولما احلولك الليل . . . غادرت مكمنى ومشيت فى خطوات وئيدة ، فى خطوات مخنوقة ؛ على هذه الأرض المفعمة بالموتى . . . وأخذت أجول طويلاً طويلاً دون أن أقف لقبرها على أثر . . . الذراعان ممدودتان . . . العينان مفتوحتان . . . متلمساً القبور بيدى ، بقدمى ، بساقى ، بصدرى ، برأسى نفسه . . . !

مضيت كضرير يتلمس طريقه . . . لمست الأحجار ، والصلبان ، والنوافذ الحديدية ، والتيجان الزجاجية ، والأكاليل الزهرية الجافة . . .

ورحت أقرأ الأسماء بأصابعى أمر بها على الحروف ... يا لها ليلة ، يا لها ليلة ! لم أجد قبرها . . .

وكان القمر غائباً فاستولى على الخوف ، وخوف مروع فى هذا المكان الموحش ... بين صفين من القبور ... !

القبور ! القبور ! القبور ... !

قبور . . . إلى اليمين وإلى اليسار . . . إلى الأمام وإلى الخلف ... فى كل صوب قبور ... !

تهالكتُ على واحد منها ، لأنى لم أستطع أن أتابع السير أكثر من ذلك . . . لأن ساقىّ كانتا تلتويان . . . أصخت بأذنىّ أصغى لوجيب قلبى ... أصغى أيضاً لشىء آخر ... ماذا . . . ؟ نبأة مبهمة لا اسم لها . . . أكان ذلك فى رأسى المجنونة ... أكان ذلك فى غبش الليل الضارب سجوفه وأسداله ، أم تحت الأرض الخفية ... تحت الأرض المزروعة بجثث البشر ؟ !

كم من الوقت مكثت هناك ؟ لا أدرى ... غدوت قعيداً من الخوف ... أصبحت ثملاً من الرعب ... على أهبة الصياح ... على أهبة الموت ... وفجأة ، خيل إلىّ أن لوح الرخام الذى كنت جاثماً فوقه قد تحرك ... حقاً ، تحرك كما لو كان قد رُفع ... وبقطرة واحدة ألقيت بنفسى على الجدث المجاور ... وشهدت ... نعم ، شهدت الحجر الذى غادرته قد انتصب واقفاً

وظهر الميت ... هيكل عظمي ليس غير ... ! وإن كان الليل وقتذاك قد نشر على الكون ذوائبه ... فقد رأيت ... رأيت جيداً على الصليب هذه الكلمات : (هنا يرقد « جاك أوليفان » المتوفى في الواحدة والخمسين من سني حياته ، كان محباً لذويه ، شريفاً ، طيب القلب ... وتوفي إلى رحمة الله ... !)

ولما قرأ الميت هذه الكلمات المنقوشة على قبره ، انحنى إلى الأرض ، والتقط قطعة من الصخر ... قطعة صغيرة مدببة ... وأخذ يزيل هذه الكلمات بعناية ودقة ... أزالها عن آخرها ببطء وهدوء ، محدقاً بعينيه الواسعتين في المكان الذي كان منذ برهة متوارياً فيه ... وبطرف العظمة التي كانت يوماً ما سبابته ... كتب بحروف براقة لامعة :

« هنا يرقد « جاك أوليفان » المتوفى في الواحدة والخمسين من سني حياته ، تعجل بقسوة قلبه موت أبيه ليرثه ، عذب زوجه ، أشقى أولاده ، خدع جيرانه ، سرق كل ما استطاع سرقته ، ومات شقياً ... ! »

... ولما انتهى الميت من كتابته أخذ يشهد نتيجة عمله ... ولاحظ في عودته أن كل القبور قد فتحت ، وأن كل الهياكل العظمية خرجت منها ، وأن الجميع مسحوا تلك الأكاذيب التي خطها ذووهم على قبورهم ليموهوا على الناس ؛ ورأيت أنهم كانوا جميعاً قساة القلوب ، حقودين ، مرائين ، كذابين ، خبثاء ، مغترين ، حساداً ... رأيت أنهم سرقوا وخدعوا وارتكبوا كل الأفعال المخجلة ، ووسموا بكل خلق دنيء ... وهؤلاء الآباء الطيبون ... هؤلاء الزوجات الوفيات ... هؤلاء الأبناء المخلصون ... هؤلاء الحفيدات العفيفات ... هؤلاء الرجال وهؤلاء النساء ... لا لوم عليهم جميعاً ، لأنهم لا يستطيعون أن يقرروا الحقيقة المؤلمة ... !

وراحوا جميعاً يخطون في وقت واحد على عتبة مسكنهم الأبدي الحقيقة القاسية ، الحقيقة المروعة ، الحقيقة المقدسة التي يجهلها الجميع أو يتجاهلونها وهم على قيد الحياة ... !

وأيقنت أنها لا بد قد قامت تكتب على جدثها ، وبدون أدنى خوف الآن ... فركضت وسط التوابيت نصف المفتوحة ، وسط الجثث ، وسط الهياكل العظمية ... مضيت إليها واثقاً أني سأجدها في الحال ... ورأيتها من بعد ... من غير أن أستجلي وجهها ، لأنها كانت قد غطته بالكفن ... وعلى الصليب الرخامي الذي قرأت عليه منذ برهة :

« أحبني وأحببتها ثم ماتت ! »

لمحتها تكتب : « خرجت يوماً لتخون زوجها ، فأصابها برد تحت شؤبوب منهمر وماتت ! »

ورأيتني أهوي إلى الأرض مغشياً عليّ . وفي اليوم التالي وجدوني مسجى إلى جانب مقبرة ... !

« المنصورة »

كمال أحمد رستم

الفرقة القومية المصرية

من الجمعة ١٩ ديسمبر والأيام التالية

كوميدي دراماتيك الشائرة الصغيرة ٤ فصول

إخراج فتوح نشاطي

تأليف فلكس دوكنيل وأندريا بارد

ترجمة روفائيل جبور

الخميس والجمعة والأحد ماتينيه فقط الساعة ٦

الأيام الأخرى سواريه الساعة ٨ر٤٥

مسرح حديقة الأزبكية - تليفون ٥٦٣٤٠

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)